العرب
الأحد 2021/10/17
السنة 44 العدد 12212

حطموا «أصنام» نيتشه.. ولا تصنعوا أصناما جديدة

نهلة راحيل
كاتبة مصرية

إذا كان تشييد التماثيل يأتي لتخليد ذكرى شخص وتكريم ما يجسده من أهمية تاريخية في الخطاب الرسمي/السلطوي، فإن تحطيمها أصبح ظاهرة متكررة يُقدم عليها الثائرون المحتجون على السياسات العنصرية التي تنتهجها الأجهزة القمعية التابعة للسلطة في العديد من بلدان العالم الأوروبي والعربي على حدّ السواء، ويرمز فعل التحطيم المادي في العادة إلى التفكيك الأخلاقي لما تحمله تلك التماثيل من "قيم" غرستها السلطات وخطابها المعرفي -كرها- في وعي شعوبها بوصفها جزءا من أحداث تاريخية مؤثرة في مسار الدول.

أبرز حوادث الهدم ما وقع مؤخرا في الولايات المتحدة الأميركية عندما أقدم الغاضبون من مقتل المواطن الأميركي ذي الأصول الأفريقية جورج فلويد، على يد شرطي "أبيض" قام بالضغط على عنقه لمنعه من الحركة أثناء الاعتقال فأودى بحياته خنقا، على تحطيم عدة تماثيل ترمز في أذهانهم إلى سياسات استعمارية عنصرية تكرّس لتفوق الأبيض وأحقيته في "إصلاح" البشرية والتعامل مع السود والملوّنين كمواطنين من درجة أدنى.

سقوط «التماثيل» لن يتم إلا بسقوط «الأصنام» الفكرية ونظريات الاستعلاء التي تعضدها، وبإدراك الجميع أنها بالفعل «أصنام»

وبدلا من هدم التماثيل كمحاولة لإزالة رموزها العنصرية من الإرث التاريخي، قد يقبل الثائرون على بناء تماثيل لضحايا العنصرية كي تجابه التراتبية الغربية وتتجرأ على خلخلتها، لتصبح بمثابة استراتيجية بديلة تزيح المعايير السلطوية عن المركز، وتطرح مفاهيم مضادة تقاوم كل السياقات التي تخدم التفوق الثقافي الغربي على ثقافة الآخر. ويمثل فعل البناء -في تلك الحالة- تمردا مدفوعا بالإيمان بأن النصب تمجد السيادة البيضاء على مجرى التاريخ، وهو ما آن الأوان لتغييره.

من أمثلة هذه الحوادث ما وقع في فيينا عندما قامت مجموعة من النشطاء بمنظمات حقوق الإنسان بوضع نصب من البرونز وسط العاصمة فيينا للتذكير بما حدث للاجئ النيجيري ماركوس أموفوما الذي مات أثناء ترحيله من النمسا إلى بلغاريا بعد أن قام الشرطي المسؤول عن ترحيله بتكميم فمه لمنعه من الصراخ، ليصبح رمزا لتجارب التمييز العنصري التي تعرض لها المهاجرون الأفارقة في دول أوروبا.

وهنا تجسد ثنائية الهدم/البناء نوعا من "العنف الشرعي"، كما أسماه فرانز فانون الذي يجابه الأنظمة المستبدة ويفكك أدواتها بهدف تحطيم المركز وتأسيس الهامش، ومن ثم التخلص من كافة أشكال الهيمنة سواء الداخلية/النفسية أو الخارجية/السياسية. ولأن العنف "المؤسسي" يُمرر غالبا عبر الثقافة بصورها المتباينة، فإن العنف "الشعبي" المضاد يمكنه أن يؤسس لنفسه ثقافة بديلة تنبعث من المقاومة التي تكفل له "التحرر" من سلطات الاستبداد من جهة، ومن الصورة النمطية الزائفة التي أضفتها تلك السلطات عليه من جهة ثانية، لتصبح عملية الهدم/البناء -بما تنطوي عليه من طقوس عنف- خطوة وظيفية الهدف منها هو تحقيق الاعتراف بالهويات المهمّشة أو المنبوذة وبحقها في العدل والكرامة.

فهذه الآلية إذن هي بمثابة تمرّد على ما تمارسه مؤسسات الدولة من "عنف إبستمولوجي" -وفق تعبير جياتري سبيفاك- في حق الفئات المهمشة التي تسعى إلى إسكاتها ثقافيا وتمثيلها وفق محددات تعيينها بنفسها؛ حيث تحاول فئات الشعب المستبعدة أن تعبر بوعيها الخاص عن ذاتها، دون أن تخضع للإطار الذي حدده لها المجتمع، فيصبح الهدم -في حد ذاته- إعادة بناء إبستمولوجي يقوم به "التابع" لنفسه بعيدا عن التصورات التي يبنيها "أصحاب السلطة" عنه، فيقوم، ردا على جراحات التمييز والعنصرية الممارسة ضده، باختراق كافة القيود المجتمعية دون اعتبار للتبعات المترتبة على هذا الاختراق.

ويبقى التساؤل المُلّح: هل تدمير/تشييد التماثيل يمكنه أن يصحح ذاكرة التاريخ أو يقوم بمراجعتها، لترسيخ وجود ما تقبله الشعوب ومحو ما ترفضه، بالأخص في ظل تغير رمزية بعض تلك المنحوتات مع تغير قيم المجتمعات من عصر إلى آخر؟ ففي الغالب، إن إزالة بعض التماثيل أو وضع بدائل لها لن تؤدي دورها المنشود في تحديد هوية الشعوب وذاكرتها الجمعية إلا إذا رافقها تغير في وعي الأفراد -الحاكمين والمحكومين- وإدراكهم بأنه لا أحد يجب أن يحيا كما أراد له الآخرون، فسقوط "التماثيل" لن يتم إلا بسقوط "الأصنام" الفكرية ونظريات الاستعلاء التي تعضدها، وبإدراك الجميع أنها بالفعل "أصنام" يجب تحطيمها وعدم الإصغاء إلى "أصنام" جديدة.

ولعل هذا المشهد يحملنا إلى "أصنام" نيتشه التي تعني -وفق وصفها في كتابه "أفول الأصنام"- التصورات الوهمية التي يعيش الإنسان معتقدا أنها هي الحقائق المطلقة، ولذلك عليه تحطيم كل تلك "الأصنام" التي خلقها على مرّ العصور وآمن بها، ومحاولة تفكيك قدسيتها بعيدا عن الوصاية الأخلاقية أو الدينية أو السياسية. أبرز نماذج تلك "الأصنام" -في رأيه- القوالب الأيديولوجية النمطية التي ترسخ لفكرة تمجيد بعض القطاعات البشرية -كرجال الدين أو الفلاسفة أو الساسة الأوروبيين- وتخويلهم سلطة "إصلاح" البشرية بدافع امتلاكهم للخطاب المعرفي أو للحكم الأخلاقي أو الديني.

ولذلك فإن الإنسان الذي "يُصلحه" الساسة أو رجال الدين أو غيرهم من ذوي "القوامة" الثقافية أو الأخلاقية أو الدينية داخل المؤسسات المهيمنة في المجتمع، يتم في الواقع "إضعافه لجعله أقل قدرة على الضرر، وتحويله عن طريق الأحاسيس المحبطة، كالخوف والألم والجوع والعقاب، إلى إنسان مريض مهموم ناقم على نفسه وممتلئ بالريبة تجاه كل ما قد يجعله سعيدا أو قويا". ففي الوقت الذي تدّعي فيه أجهزة الدولة أنها قد "أصلحت" الإنسان، فإنها صاغته بناء على ما استقر لديها من سلوكيات الهيمنة تجاه شعوبها التي تحاول الاستحواذ عليها، حتى إن كانت "الوسائل التي تستخدمها لجعل البشرية أكثر أخلاقية، جميعها لا أخلاقية في الأساس".

هذه الهويات المذوّتة تحاول -من وقت إلى آخر- التحرر من التبعية وإثبات وعيها خارج طوق التذويت الذي تنحصر داخله، فتلجأ إلى التمرد على "العنصر المتفوق" وتحاول تحطيم "الأصنام" التي أحاطت بعقولها لفترات ماضية. وهنا ينبغي عليها ألا تخلق -أثناء ذلك- أصناما جديدة تصنعها أوهامها عن وجودها الخاص، فتتعصب لها بوصفها حقائق مطلقة، فوضعية التمرد على الوضع الماضي/الكائن لا يجب أن يرافقها إضفاء القداسة على وضع جديد/ممكن.

وهو ما يستدعي في الذهن طرح الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ليوتار في دعوته ألا تقدم السرديات/الأصنام المضادة نفسها بوصفها سرديات/أصنام كبرى بديلة، لتتحول بذلك إلى مركز بديل يمارس الإقصاء والعنف ضد غيره. ولذلك، عليها ألا تدعي الشمولية والكمال بل يجب أن تتعامل مع أحداث تاريخية محددة ووضعيات خاصة تسعى إلى انتقادها وكشف تحيزاتها وتقويض أدواتها، ثم تفكك ذاتها بعد تحقيق غايتها دون أن تستأثر لنفسها بسمة "المركزي" وتهمّش غيرها من الخطابات أو الأيديولوجيات.

في هذا السياق، يعد تبنّي مفهوم التعددية الثقافية بشكل يؤدي إلى قبول الاختلاف بين الانتماءات المختلفة، هو الوسيلة الآمنة التي تتيح التفاعل بين الهويات، بالأخص داخل المجتمعات التي تتكون من هويات متصارعة. فإذا أدركت المجتمعات -أفرادا وحكومات- أن تكوين بنية ثقافية تعددية يتيح دعم التفاهم بين الثقافات دون صدام، وينفي التصنيف التراتبي للبشر الذي يعطي الأفضلية لنموذج بعينه على النماذج الأخرى، هو المخرج الذي قد يذيب الفروق الإقصائية القائمة على اللون أو الدين أو النوع أو الأصل وغيرها من أشكال التمييز العنصري، فعندئذ سيكون أفول "الأصنام" الخالدة التي تشيدها كل فئة عن نفسها وعن الآخرين، مهمة أكثر سهولة.

استنطاق الأصنام الخالدة

هيجل الفيلسوف العنصري الذي لن تغفر له أفريقيا

عبدالكريم نوار
كاتب مغربي

يقدم فرانز فانون تصور فريديريك هيجل حول أفريقيا وهو تصور مليء بالنعرات العنصرية؛ نجد ذلك في تعريفه للقارة السمراء إذ يقول: إنها قارة مقطوعة عن التاريخ. على الأقل منطقة الصحراء الكبرى وهي الصورة التي تقطع القارة (بصورة طبيعية) إلى جزأين: أفريقيا مقطوعة عن العالم ومحدودة بجغرافيتها وحيواناتها ونباتاتها غير الإنسانية، غابات كثيفة لا نهاية لها، الزواحف والأفاعي والبعوض وقردة الغوريلا، ذلك الحيوان الهجين بامتياز، لا تصور العمود الفقري لأفريقيا، بل جوهرها ومعناها أيضا.

يؤكد فانون في قراءته لهيجل أن الأفريقي شخص مصلوب، لا ثقافة له ولا حضارة، وبهذا العراء يكون وجود الزنجي وكينونته عقدة نقص له لا تفارقه، وتنشأ هذه العقدة لدى كل شعب يمر بتجربة موت أصالة الثقافة المحلية، "إن أفريقيا محكومة بأن تظل خارج منطق التاريخ.. تاريخ يغفو في أفريقيا والعقل يتحرك دون أن يتقدم".

يرى كلود لفي ستراوس أن هذا الموقف أكثر كلاسيكية وهو يستند إلى أسس نفسية لا علاقة لها بالعلمية ولا بالواقعية، وهدفها التعبير عن الرفض الكامل لأشكال الثقافة الأخلاقية والاجتماعية والدينية والجمالية البعيدة كل البعد عن القيم التي يعتنقها. فتعابير مثل "عادات المتوحشين" و"الواقفين خارج التاريخ" التي يقول بها هيجل والكثير من ردود الفعل الفظة التي تعبر عن القشعريرة والتقزز أمام أساليب العيش والاعتقادات الأخرى التي تختلف عن الثقافة الغربية.

يمكننا أن نقول مع ستراوس إن العنصرية متأصلة في بعض الثقافات الغربية (الثقافة اليونانية والرومانية مثالا) التي كانت تجمع كل ما لا يشترك مع ثقافتها تحت مفهوم "بربري"، وفي ما بعد استعملت هذه الحضارة مفهوم "متوحش" بالمعنى ذاته. فمن المرجّح حسب ستراوس أن كلمة "بربري" يلفها الغموض من الناحية اللغوية، ولا تعبر عنده إلا على المتوحش الذي أتى من الغابة. وهدفه التذكير بنوع من الحياة الحيوانية المتناقضة مع الثقافة الإنسانية.

في كلتا الحالتين ترفض القبول بواقعة تنوع الثقافة، وتفضل أن ترمي بالآخرين خارج الثقافة، أي في الطبيعة. يقول ستراوس "إن هذا الموقف الفكري الذي يرمي باسمه 'المتوحش' خارج الإنسانية هو تماما الموقف الأبرز والأكثر تميزا لهؤلاء المتوحّشين أنفسهم، بالفعل نحن نعلم أن فكرة الإنسانية التي تشمل دون تمييز في العرق والحضارة، كل أشكال النوع البشري لم تظهر سوى متأخرة جدا ولم تعرف إلا انتشارا محدودا".

يؤسس ستراوس لهذا الموقف أنثروبولوجيا عندما يؤكد على أن الإنسانية عند الشعوب القديمة تتوقف عند حدود القرية، التي يشير فيها هؤلاء السكان إلى أنفسهم بـ"الناس" وأحيانا يقولون بكثير من الرصانة "الطيبون"، "الممتازون"، "الكاملون"، الأمر الذي يعني أن القبائل والمجموعات والقرى الأخرى لا تشترك في هذه الفضائل الإنسانية، لكنها تتألف من "السيئين" ومن "الأشرار" ومن "قردة الأرض" من هنا نلاحظ كيف تأسس الموقف الهادف إلى حرمان الأجنبي من الحقيقية الأخيرة إذ يجعل منهم شبحا أو خيالا. هكذا تتحقق أوضاع غريبة حتى يتبادل المتحدثان الرد بقساوة.

ويقدم طرفة مضحكة ومأسوية في نفس الآن، مفادها أن في بلاد الأنتيل الكبرى بعد عدة سنوات من اكتشاف أميركا، حينها كان الإسبان يرسلون بعثات التحقيق للبحث في ما إذا كان السكان الأصليون يملكون روحا أم لا، كان هؤلاء يعمدون إلى إغراق السجناء في المياه وذلك لكي يتحققوا عبر المراقبة الطويلة، عما إذا كانت جثتهم عرضة للتحلل أم لا.

أفريقيا محكومة بأن تظل خارج منطق التاريخ، تاريخ يغفو في أفريقيا والعقل يتحرك دون أن يتقدم

وعليه فإن هذه الطرفة النافرة والمأسوية تبرز بوضوح المفارقة العنصرية، ويرد ستراوس على هذا النوع من التفكير العنصري بقول صريح وواضح "فبرفضنا الإنسانية على الذين يبدون أكثر 'وحشية' أو 'بربرية' من ممثليها، لا نقوم إلا باستعارة واحدة من مواقفهم المميزة، منهم. إن البربري هو قبل كل شيء هو الإنسان الذي يعتقد بوجود البربرية". لم تفلت شمال أفريقيا من هذه العنصرية الهيجلية؛ قال في الجزء الأول من العقل في التاريخ "ولقد كان من الواجب ربط هذا الجزء من أفريقيا بأوروبا، ولا بد بالفعل أن يرتبط بها، ولقد بذل الفرنسيون أخيرا جهودا ناجحة في هذا الاتجاه. فهو -مثل آسيا الصغرى- يبدو متجها نحو أوروبا. ها هنا استقر القرطاجيون والرومان والبيزنطيون والمسلمون والعرب تباعا، كما ناضلت المصالح الأوروبية لكي تجد على هذه الأرض موطئا لأقدامها".

فإذا كان هيجل ينظر للاستعمار بعين الرضى، معجبا بنابليون غازيا ألمانيا، مجردا وبقساوة دخول جيوش فرنسا إلى بلاده -تجريدا فلسفيا باردا "روح العالم يمتطي صهوة جواد"- فكيف يمكن لهيجل أن يكون رؤوفا بشمال أفريقيا؟ فهو يؤيد استعمار فرنسا لشمال أفريقيا سنة 1830 لكن لماذا هذا التأييد؟ فإن كانت أفريقيا تحيل عند هيجل على "البربرية" و"التوحش"، وإن كان شمال أفريقيا قريبا من أوروبا "المتحضرة" فإن على فرنسا أن تدرج هؤلاء الذين يتموقعون خارج التاريخ إلى حركة التاريخ وذلك عبر الاستعمار.

وبناء عليه ليس هناك ما يدعو للغرابة في أن يبرر هيجل الاستعمار والتوسع الامبريالي الذي خلف الدمار والاستبداد في هذه البلدان إلى يومنا هذا، إن المنطق الهيجلي هذا نفسه الذي به تُستعمر الدول وتُستنزف.

هيجل ينظر للاستعمار بعين الرضى

ص10 تنشر كاملة على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية